

المحاضرة الثانية: تحليل العملية التعليمية التعلمية في سياق العلاقة الـديداكتية

معلم - محتوى

يعتبر التعليم في أبسط صوره عملية نقل المعرفة من المعلم إلى المتعلم، لذا فإن العملية هاته لا تتم إلا عبر توفر شرط التحكم في المعرفة او المحتوى من طرف المعلم، هذا الأخير، يمكننا اعتباره عالم بالمعرفة محصل لها متمكن منها، أما متعلم فيفترض فيه ان يكون جاهلا بتلك المعرفة طالبا لها محتاجا إليها، هذا التوصيف الساذج سوف يحيلنا إلى تقرير حقيقة أن التعلم لدى التلميذ مرهون بما تعلمه المعلم، وكأن العلاقة الأولية تحيلنا أيضا لفهم سياق العلاقة الـديداكتية بين المعلم والمحتوى.

إن العلاقة بين المعلم والمحتوى لا تحتكم إلى مفهوم القدرة على استيعاب موضوعات ما، ونقلها جاهزة بأمانة وبصدق إلى المتعلم، لأن المعرفة ليست بضاعة تغلف وتنقل محفوظة لدى المستهلك، إنها استيعاب المعرفة والإلمام بتفاصيلها مرحلة معقدة من التفاعل الذاتي والتنظيم المبرر للمعرفة، فهي تختلف من معلم إلى معلم، ومن مادة إلى مادة، ومن موقف إلى موقف، وبالتالي فهم هذه العلاقة سوف يحيلنا إلى التمعن الجيد في اتجاهين أساسيين لفهمها إحداها ترتبط بطبيعة المعرفة أو المادة التعليمية أو المحتوى والذي نعبر عنه بالبعد الإبيستمولوجي، والثانية تتعلق بخصائص المعلم في التعاطي مع المادة والذي يظهر في البعد التطويري البنائي للمادة، والبعد التفاعلي، والإبداعى. (Creasy, 2018)

(Tang, i Ee Cheah, 2017)

أولاً: البعد الإبستمولوجي:

يفرض منطق العلاقة بين المعلم والمحتوى أن يلم المعلم بالمحتوى، ومعالجته، وتنظيمه، وإعادة بنائه قبل عرضه على المتعلمين، ومن هذا المنطلق فإن ادوار المعلمين في هذه المعالجات سوف تختلف باختلاف طبيعة المادة التعليمية، حيث تفرض هذه الأخيرة بحسب طبيعتها المعرفية وبنائها المنطقي على المعلم ان يحترم هذه الخصوصية الإبستمولوجية، فمنطق تدريس اللغة العربية مثلاً يأخذ بعين الاعتبار الطابع البنائي والتركيبى والنحوي والصرفي والعروضي، كما يأخذ بعين الاعتبار طابعها البلاغي والدلالي والجمالي والسميائي للمادة ذاتها، كما ان الطبيعة الإبستمولوجية لمادة الرياضيات فاقترض من المعلم ان يراعي مبدأ التجريج فيها، ومنطقية العلاقات، التي تعتمد جملة من المسلمات والبديهيات والالتكاء على مجموعة من المعطيات الدقيقة.

وبالمثل فإن معلم مادة الفيزياء سوف يتبنى من جهته منطقاً علمياً يقوم على مبدأ التخيل في الحوادث والأمكنة والأزمنة والفضاءات والمساحات الضرورية لحدوث الحركة وانتاج القوة، كما أن معلم مادة الإحياء سوف يدرس مواضيعه بناء على منطق التطور والتغير والنمو الخاضع لشروط بيئية وحيوية وفزيولوجية خاصة، كما يدرس مادته وفق منطق الاكتمال والضمور والضعف والفناء، المبشر بمرحلة متجددة من إعادة ظهور دورة بيولوجية طبيعية جديدة.

وعليه فإن كل هذه المنطلقات المعرفية التي تحتكم إليها كل مادة على حدى تضطر معلمها لتبني منطق في تدريسها ووجهه لاختيار الأساليب والاستراتيجيات المناسبة، واعتماد الوسائل والأدوات المساعدة، واختيار الأساليب التقويمية الخاصة.

ثانيا: البعد التطويري البنائي:

صحيح ان إعداد المناهج والمحتويات من صميم اختصاص اللجان المخولة بهذه المهمة، والتي تتألف عادة من مختصين في المادة، ومن معلمين ومشرفين تربويين، ومن نفسانيين وخبراء تربوية وغيرهم، لكن هذا الإعداد وهذا البناء المنظم للمحتوى لا يعفي المعلم من مسؤولية إعادة قراءة المنهاج والتخطيط لما يراه مناسباً وإضافة وتعديل ما تدعوا له الحاجة ويمليه الهدف في إطار عمل مشترك مع المشرفين أو أساتذة المادة. فخصوصيات المنطقة أو المتعلمين، أو تدخل بعض الظروف الطارئة، أو ظهور مقتضيات ومبررات منطقية في التعديل تحتم على المعلم ان يبادر لتطوير ما يراه مناسباً في المحتوى، الأمر الذي يضعه ضمن الفاعلين المؤثرين في إعادة وتنظيم المنهاج.

يقول مرعي والحيلة في هذا السياق: " إن اهداف خطط المنهاج قد تختلف عن اهداف الوزارة، و إن أهداف المعلم قد تختلف عن أهداف الجهتين معاً، وقد تختلف أيضاً اهداف خبراء تطوير المنهاج أيضاً. ولكن أهداف المعلم في كثير من الحالات تكون أكثر واقعية من اهداف الفئات الأخرى" (مرعي والحيلة، 2010، صفحة 60)، لذلك فإن العلاقة التي تربط المعلم بالمحتوى تتأكد في هذا البعد التطويري البنائي المتجدد.

ثالثاً: رابعاً: البعد التفاعلي بين المعلم والمحتوى:

تظهر مهمة المعلم ضمن هذا البعد في قدرته على (إحياء) المضامين، وتفعيلها داخل الصف، وتحريم المعارف والمعلومات ونقلها في سياقات مشوقة ومميزة، ولعل هذا يعكس مدى حب هذا المعلم للمادة ومدى تفاعله معها، واستيعابه وتمكنه منها، إذ معلوم أن ما نحب تعليمه يتجلى في سياقات الدرس المختلفة وسياقات التدريس الصفّي التي يكشف التلاميذ عادة انها سلسلة عذبة وجاذبة، نكاد لا نشعر بمرور الوقت معها.

فإحياء المادة يكون عبر ممارسة فعلية داخل الصف، تتخللها مختلف الأنشطة الدراسية المختارة بعناية، يلون فيها المعلم من نبرات الصوت، وتتغير فيها مستوياته ودرجاته، وتظهر فيها علامات التغير في الوجه، وتكثر حركاته، ويعدل المعلم فيها جلساته باستمرار، وتكثر فيها الأمثلة، ويظهر فيها استعداداته الدائم للتكرار والإفهام، فتتجلى المعرفة وقد لبست قيمة اخلاقية او اجتماعية او وطنية، فتجاوز بذلك المستويات المعرفية إلى المستويات القيمية العاطفية تجعل المتعلم مشدوداً لأستاذه متعلقاً بما يقول.

لقد كشفت كثير من الدراسات العلمية أن كثيراً من المتعلمين أحبوا بعض التخصصات نتيجة ميلهم للمادة القريبة من التخصص، وكان سبب الميل لهذه المادة المعلم الذي استطاع وتمكن في المشوار الدراسي أن يشكل قيمة للمادة تجعل المتعلم متعلقاً بها محباً لها. كما اظهرت كثير من الدراسات أن افضل المواقف التعليمية التي بقيت راسخة في ذهن الطالب

هي تلك التي رافقتها تجربة انفعالية عاطفية حينما يظهر المعلم وقد تأثر بما يقول، فتنقل تلك الشحنة القوية إلى المتعلمين كتجربة قوية لا تتمحي بفعل الزمن.

" لقد بقيت صورة أستاذ مادة الأدب العربي قائمة في مخيلتي بعد مرور أكثر من خمسة عقود وكأنني انظر إليها اليوم، فأستاذي كان يتأثر كثيرا بما يقول وهو ينشد أشعارا جميلة بطريقة فيها الكثير من الصدق والحب والعاطفة ' يقول احد العلماء.

ومن الوسائل المعينة على تفعيل المعلم للمحتوى المعرفي اعتماده أدوات ووسائل بيداغوجية معينة مهما كانت بسيطتها، فانتقال التلميذ من وضع تعليمي تقليدي يعتمد السماع والقراءة من السبورة او الكتاب، إلى توظيف حقيقي لوسائل بيداغوجية معينة في الممارسة الفعلية التجريبية سوف تغير حتما من حجم التفاعل الذي يقدمه المعلم أثناء الدرس، وتظهر مدى قدرة هذا الخير على تنويع المداخل المحققة للهدف المنشود من ذلك الدرس.

رابعا: البعد الإبداعي في نقل المعرفة:

يظهر من العلاقة البسيطة لتي تجمع المعلم والمحتوى أن المعلم وهو ذلك الناقل الأمين للمادة التعليمية لموكل بتقييم مدى تحقق الأهداف تعلمها، والحقيقة ان هذه العلاقة بسيطة وسطحية لأن العلاقة (معلم محتوى) تتجاوز بكثير مسؤولية النقل الصوري، إلى جعل هذه العلاقة تجربة قائمة بذاتها، وحدثا يختلف عن المواقف التعليمية السابقة واللاحقة في نقل هذه المعرفة.

والسبب في ذلك يرجع ان المعلم في تعاطيه مع تلك المادة قراءة وفهما وتنظيما وتدريسا وتبسيطاً وتقويماً، سوف يشكل موقفاً يعد بالنسبة له فرصة لتجديد المعارف وتطويرها والخروج بتجربة جديدة غير معهودة في الدرس يمكنه من تعديل بعض المفاهيم او طرح بعض التساؤلات، او تطوير بعض القنوات، او حتى التطلع على بعض الأفكار المبدعة التي ما كانت لتظهر وتتفقد لولا ذلك الموقف التعليمي الجديد المتجدد.

إن هذه الفكرة ترتبط بقدرة المعلم على قراءة المنهاج التعليمي قراءة مبدعة مع كل فرصة تتاح له لتدريس المادة، فالتدريس في أصله ممارسة فكرية عالية الرتبة تقتضي من المعلم أن يمارس المعرفة بفكر تحليلي تركيبى نقاد مستكشف مبدع، مع كل حصة دراسية تشكل تجربة قائمة بذاتها. ومن المهم ان ننبه في هذا السياق إلى أن المتعلم يكون في معظم الأحيان السبب المباشر توجيه فكر الأستاذ نحو إعادة قراءة وفهم المحتوى بشكل مطور، والمعلم الناجح هو الذي يقرأ مادته في كل فرصة قراءة متجددة، دليلها كثرة الأسئلة حولها، او اتساع افق البحث حولها، وربما إبداع افكار جزئية لم تكن لتخطر على لبال لولا تلك المعالجات الفكرية المتواصلة.

وعليه فقراءة المحتوى بطريقة مبدعة تعتبر ارقى أوجه العلاقة القائمة بين المعلم والمحتوى، وهي مسألة سوف تثير يوماً بعد يوم المعلم والمتعلم على حد سواء، خصوصاً وقد توافرت اليوم فرص الاطلاع الموسع على الجديد من الخبرات والمعلومات التي توفرها

قواعد البيانات الإلكترونية، ولعل هذا ما يجعل من التعليم فرصة ممتعة لدى المعلمين، لأنه
ترقب مستمر للجديد والإبداع.